

دراسة سوسيولوجية للشخصية الجزائرية
فرانز فانون أنموذجا
Sociological study of the Algerian personality
Frantz Fanon as a model

أ. حفري عبد الحميد

كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران 2

البريد الإلكتروني: hifrihamid@yahoo.fr

إشراف الدكتور: العلوي أحمد

كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران 2

تاريخ الإرسال: 2019/09/23

تاريخ القبول: 2019/123/18

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على الطابع النفسي المندرج ضمن السلوك العام للمجتمع الجزائري البارز بحدة خلال حرب التحرير. ولئن كان هذا السلوك وليد كبت بالمعنى السيكيوباتولوجي كآلية دفاعية نفسية لا شعورية، إلا أن الواضح أن المؤثرات الخارجية جعلت الشخصية الجزائرية تتجلى واضحة في أعمال "فرانز فانون" كونها كانت شخصية تقبلت أداء سلوك استثنائي بقصد تحقيق الهدف العام الذي ارتضته الثورة لنفسها، هدف يستلزم مئات وآلاف أنواع من السلوك تعتمد للحصول على الحرية والاستقلال.

تتجلى العبقرية التنبؤية لفرانز فانون في كتاباته فيما صوره منذ 50 سنة مضت من تصوير دقيق جدا للوضع الحالي في الجزائر حيث ترسخ النخب الجشعة الفساد وتخدم المصالح الأجنبية وتدير ظهرها لحقائق التنمية.

تؤكد الأحداث الحالية في الجزائر ما تنبأ به فانون من وضع مشئوم في انشغال البورجوازية بملء جيوبها وتجاهل الركود المؤسف وتوجيه خياراتها بما يوافق مصالحها.

يؤكد "فانون" في كتاباته أن الاثراء الفاضح والسريع الذي تحققه تلك الفئة المحتكرة سيكون مصحوبا بـ "صحوة حاسمة من طرف الشعب ووعي متزايد يبشر بحلول أيام عاصفة".

الكلمات المفتاحية : الشخصية ، السيکوباتولوجيا ، الركود ، الوعي ، الصحوة.

Sammury :

This study aims to identify the psychological nature of the general behavior of the prominent Algerian society during the war of liberation. While this behavior was born in the sense of psychopathology as a subconscious psychological defense mechanism, it is clear that the external influences made the Algerian character evident in the work of Franz Fanon, as she was a figure who accepted the performance of extraordinary behavior in order to achieve the general objective accepted by the revolution for itself, a goal requiring hundreds of Thousands of behaviors are adopted for freedom and independence.

The predictive genius of Franz Fanon in his writings is reflected in his portrayal 50 years ago of a very accurate depiction of the current situation in Algeria, where greedy elites consolidate corruption, serve foreign interests and turn their backs on development realities. The current events in Algeria confirm Fanon's predictions of an ominous situation in the preoccupation of the bourgeoisie by filling its pockets, ignoring the unfortunate stagnation and directing its options in accordance with its interests.

Fanon asserts in his writings that the blatant and rapid enrichment of this monopoly would be accompanied by a "decisive awakening by the people and a growing awareness that heralds by stormy days."

Keywords: Personality, Psychopathology , Stagnation , Awareness , Awakening .

المؤلف المرسل: حفري عبد الحميد hifrihamid@yahoo.fr

1- مقدمة:

إذا كان حسب هذه الصفحات أن تكون تعريفا بالدراسة النفسية السوسيولوجية للشخصية الجزائرية من خلال أعمال "فرانز فانون" فإنها تعرف في الوقت نفسه بأعمال هذا الطبيب النفسي والفيلسوف الاجتماعي والكاتب الثوري. كانت لمؤلفات "فانون" أهمية بالغة في إبراز الملامح الرئيسية للشخصية الجزائرية مما جعلنا نترجم كتابه "سوسيولوجية ثورة" نشر عام 1985، توضيحا منا لهذه الملامح، على النحو الذي تجلت فيه فعليا ضمن كتاباته.

هذه الصفحات إذن مساهمة في إبراز أعمال "فانون" وإظهار أفكاره للعالم العربي الذي لا يزال إلى الآن على الرغم من ثورته الكامنة التي اكتشفها فانون يجهل كل مقومات الفكر التاريخي المتجدد الذي أرسى "فانون" قواعده على أساس من المنظور الاجتماعي بشقيه العصبي والفينومينولوجي في آن معا.

وهذا طبيعي جدا لأن فانون الذي نشأ نشأة علمية تجمع بين الفكر والطب النفسي، حتى حصل على درجته العلمية في الأمراض العصبية عام 1951 وجد نفسه مدفوعا إلى استكشاف طريقة ظاهرية لمتابعة الظواهر الاجتماعية الثورية ابتداء من بواورها الأولى كمجرد خلافات حول وضعية المرأة وقضية تغلغل الاعلام الأجنبي بأجهزته ومخططاته الاستعمارية، حتى يرتفع من بعد إلى أعماق أغوار العمل الثوري وإيديولوجية التقعيد التاريخي، وينفذ من هذا السبيل إلى التعريف بحقيقة الرجل الجزائري كثوري مواظب، ويرسم لوحة كاملة بعد هذا كله للاستعمار.

نحن الآن أمام محاولة من أجل استكشاف ملامح الشخصية الجزائرية كما يسميها فرانز فانون بقلمه في مجموع الكتب التي تركها.

وقد أردنا في موضع هذا البحث أن نستلهم الطريقة التي ابتكرها "فانون" وهو يحاول أن يركز فكره وقلمه على الشخصية الجزائرية المناضلة وقت الثورة من أجل تحديد معالمها، باعتبار أن هذه الشخصية شخصية مؤقتة انبثقت بفعل البيئة وبفعل الموقف الخارجي الذي كان يتهدها قبل الاستقلال

وإذا صح هذا فقد تألف لدى المجتمع الجزائري بناء جديد من الشخصية لمواجهة الاستعمار بصورة الغاشمة أثناء فترة الاحتلال وتألفت بالتبعية لديه شخصية جديدة أو بمعنى أصح بناء جديد من المواقف لمواجهة تلك التي كان يجد نفسه مضطراً إلى اتخاذ سلوك معين حيالها.

ودار بخلدنا أن نلجأ إلى أعمال "فانون" بوصفها شاهداً واقعياً على ما كان يدور من أحداث خلال الثورة – واتجهنا إلى هذه المؤلفات لنستخلص منها البناء الذي اهتمت به الشخصية الجزائرية لمواجهة النظام وضروراته أثناء الثورة – وآثرنا أن نتبع أعمال "فانون" لاستخراج صورة كاملة للشخصية الجزائرية التي تجلت في كل التصرفات وفي أنواع السلوك التي اضطرت الجزائر إلى تبنيها لمواجهة الموقف الاستعماري.

وأول ما نسجله في هذا الصدد هو أن الشخصية التي عبر عنها "فانون" في مؤلفاته تكاد تكون مجموعات من الأبنية الحضارية والثقافية والسياسية التي وضعها الجزائري أمام الاستعمار كدرع يقي به كل الأبنية الخارجية التي يحاول هذا الأخير أن يفرضها عليه فرضاً.

إن البحوث الجزائرية حول الثورة الجزائرية باستثناء محاولات قليلة لا نجد فيها تصنيفاً علمياً يمكن أن يشكل تمهيداً لبحوث معمقة. ولئن كانت نصوص الثورة الجزائرية تصدر في معظمها باسم جبهة التحرير الوطني، فإن

الأضواء قد سلطت بقوة - ومنذ سنة 1957 - على كتابات الدكتور فرانز فانون لكونه اعتبر ابنا للثورة الجزائرية نضج فكره مُحْتَكا بها ومتفاعلا معها. وما كان يعبر عنه "فانون" في مؤلفاته حول الشخصية الجزائرية لم يكن بالمعنى الفكري أو الايديولوجي، بل بالمعنى النفسي وبالمعنى المرتبط بدلالات الطب النفسي، لأنه كان طبيباً للأمراض العقلية، وكلامه عن الشخصية الجزائرية، وإن كان مصوغاً في قالب أدبي فهو يعبر عن دراسة نفسية لهذه الشخصية من الدرجة الأولى.

إشكالية البحث :

الدراسات عن "فانون" التي ينكب عليها الغرب دون توقف حتى اليوم عبر مناطق مختلفة من العالم أدت إلى ترويج فكرة استقرت في الأذهان، ترددت لدى الكثير من الباحثين الغربيين، مؤداها أن "فانون" أثر في الثورة الجزائرية تأثيراً حاسماً إلى درجة أن ثمة من اعتبره - هُوَ - مُنْظِرَ الثورة وقائدها*، وتجاهلت - متعمدة - عناصر التأثير الذي أمدت به الثورة "فانون"، حيث كان لها - هي - أبعد الأثر على فكره وكتاباته بعد أن عايش هذه الثورة وتطعم بأفكارها ومات من أجلها.

فرضيتنا هي أن توجيه كتابات الغرب هذه الوجهة هو في نظرنا أبعد ما يكون عن الحقيقة لأننا نرى أن إهمال تسليط الضوء على مدى تأثير الثورة في "فانون"، دافعه نكران الغرب لما كشفه "فانون" في كتاباته من مميزات شامخة للشخصية الوطنية الجزائرية التي حاولنا سرد بعد ملامحها في كتاباته، من ذلك، أنه حتى أولئك الذين سلموا من الكتاب الغربيين بوجود شخصية وطنية جزائرية، اجتهدوا في جعل تكوينها تكويناً حديثاً جاء نتيجة الوجود الفرنسي.

2- المنهج والأداء

أولاً: حياة فانون وتكوينه النظري والإيديولوجي

ولد فرانس فانون في مدينة فور – دي – فرانس. ويبدو أن ميلاد فانون كان لغرض محدد ... فمن الناس من يولد لحمل رسالة معينة في حياته، ومن الرجال من يظهر لا ليعيش ولكن ليؤدي دوراً محدداً تخلقه الظروف خلقاً من أجله. فإذا كان المسيح قد خلق ليواجه الظلم وإذا كان محمد "عليه السلام" قد ظهر لمواجهة القوى الباغية المسيطرة على المال وعلى الناس، وإذا كان كارل ماركس قد خلق ليلعب دوره ضد النظام الرأسمالي، وإذا كان "غاري بالدي" قد ظهر لمحو الفقر في "صقيلية" وإذا كان "لينين" قد أوجدته الحكومات الأوتوقراطية القيصريّة في روسيا كما خلقت الإمبراطورية البريطانية "غاندي"، فقد جاء ميلاد "فانون" للوقوف في وجه الرجل الأبيض. وكانت هذه المواجهة مفروضة على فرانس فانون الذي ولد في "جزر الأنتي" بالمارتنيك الفرنسية فكانت رسالته للدكتوراه في الطب العقلي سنة 1951 بداية مرحلة من الصراع الطويل الدرامي.

كتاباتهِ وبخاصة منها كتابه الشهير: "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء"¹ كان بمثابة إعلان الحرب المباشر ضد الرجل الأبيض. وهكذا لا يشعر الإنسان بأنه قد كانت فترة ما بين لحظة ميلاد "فانون" ولحظة هذا الكتاب، وكأنه ولد ليشرع تواً في تأليف هذا الكتاب.

ومما لا شك فيه أن "فانون" عندما جاء إلى الجزائر سنة 1953 وهي سنة زواجه وتعيينه مديراً للعلاج العقلي في مستشفى "البليدة جوانفيل" كان قد أحس لحظة وصوله لا بمهامه العلاجية وحدها – وإن كان قد أفرغ لها كل عنايته وحبّه – وإنما أحس أيضاً بالانتماء الأصيل إلى الناس المحيطين به

وشعر بأن شيئاً يربطه بهم، وكأنهم يقاسمونهم بعض ما يضمّره في قلبه وبعض ما يخفيه في طيات وجدانه.

وأول إحساس له هو أن هؤلاء الناس على أرض الجزائر، مثله تماماً وإن أبيضت جلدتهم، لأنهم مثله يعانون من الرجل الأبيض ويقاسون من مطامعه ويخضعون لنفسيته كرجل أبيض عندما يواجه هذا الرجل الأبيض أبناء من غير جلدته.

والرجل الأبيض هنا هو المستغل المستعمر الذي يتلون إحساسه إزاء الناس بمجرد شعوره أمامهم بأنه من غير بشرتهم وبأنه إذا لم يتميز بلون الجلد فهو مميز "بالمدينة" و"الذكاء" و"الحضارة" و"التقدم" و"التحرر" و"البعد عن الخرافة" أو باختصار بأنه هو سيد العالم.

ويمكن أن نضرب مثلاً لهذا بالرجل العادي الذي يعيش في إنجلترا أو في فرنسا أو في ألمانيا أو في بلجيكا أو في سويسرا. فهذا الرجل يروح ويحيى وسط أهله وأقاربه وأبناء بلده ويتعامل هنا وهناك، وقد يلقي كل الألوان فوق أرض بلده، ولكن إحساسه بالسيادة والامتياز والمدينة لا يظهر إلا عندما يكون وجهها لوجه أمام الإفريقي خارج حدود بلاده.. فإذا به نفسية أخرى وإذا به رسول محمل بأعباء التقدم والرخاء إزاء غيره ممن لم يصل إلى شيء مما حققته وبلغه ووصل إليه.

والواقع أن الأضواء كانت قد سلطت على "فانون" قبل اندماجه في الثورة الجزائرية، مباشرة بعد تأليفه كتاب "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء" عام 1952، وكان لهذا الكتاب ردود فعل كثيرة في الأوساط الغربية التي امتلأت انفعالا وشحنة وأبت إلا أن تصرح دون هوادة أن فانون لها، ولا يمكنه بذلك أن يثور عليها.

على أن "فانون" قد حقق بين 1952 و1961 تطورا فكريا عاليا فقفز من التمرد على الزوجية في كتابه "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء" إلى ثورة الجزائر التحريرية التي سجلها في كتابه "سوسيولوجية ثورة"² إلى صرخات وجهها للعالم الثالث وسجلها في كتابه "معذبو الأرض"³ الذي أنهى تأليفه وهو على فراش الموت، مُقاسيا كل ما سببه له سرطان الدم من آلام وأوجاع. إن مجيء فرانس فانون إلى الجزائر قد اقترن بإحساسه بأن العدو المستعمر هنا هو نفسه الرجل الأبيض الذي يطارده في كل مكان، وهو نفسه الذي يملأ أذنيه وقلبه بمدى التميز الذي يعلو به عليه. ولم يجد في الجزائر إخوته في الوضع الزنجي وإنما وجد نفسه أمام العدو المستعمر الذي كان بالنسبة إليه شخصا، خالق الوضعية الزنجية ومؤسسها.

لذلك فقد أحل كل غضبته السوداء محل إحساس الجزائري بالوطنية وأصبح بين يوم وليلة مواطنا جزائريا يدين بحرية الجزائر واستقلالها لأنها حريته هو نفسه إزاء عدو موحد. وبهذا كان الهم المشترك عنده وعند الجزائريين ليس الوضعية الزنجية وإنما الالتقاء عند خالق هذه الوضعية الزنجية في صورة جديدة وفي قناع جديد، هو قناع الرجل المستعمر الغاصب. وبذلك فقد صدقت العبارة التي كتبها "سمويل رودى" في دراساته عن اليسار عام 1996 عندما قال: "لقد كان "فانون" في جوهر موقفه يمزج الصراع من أجل استقلال الجزائر بالثورة الاجتماعية".⁴

وعلينا أن تلتفت هنا إلى أمرين:

1- أن فانون لم يفهم حرب الجزائر إلا من خلال الثورة الاجتماعية التي كان يؤمن بها كرجل أسود. فهذا الموقف هو الذي جعله يتآخى مع الجزائري في نقطة محددة وهي عداؤه للرجل الأبيض، بل لا يوجد في نظر "فانون" اختلاف بين العنصرية الاستعمارية وكل شكل من أشكال العنصرية الأخرى.

2- أن الثورة الاجتماعية عنده كانت لا تقف عند حد تحرير الجزائر وحدها وإنما تمتد لتغطي كل الحركات الثورية السوداء وراء الصحراء الكبرى وداخل أرض إفريقيا السوداء.

ويمكن القول باختصار بأن تعذيب الجزائريين حل في نظر "فانون" محل بشرته السوداء .. فكان عذابهم على يد الرجل الأبيض من نفس العذاب الذي أحس به من تعذيبهم له كرجل أسود . ذلك أن العذاب عندهم وعنده قد خلقته يد واحدة، وبذلك كان اشتراك "فانون" لمعالجة الجرحى الجزائريين تضميدا لجراحه السوداء.

لكن فانون لا يأتي إلى الجزائر كرجل أسود وحسب، ولكنه يأتي إليها كأسود مثقف يعاني مشاكل جوهرية وهي الإحساس بمدى حقيقة وجود الرجل المثقف بين أقوام من الجماهير غير المتعلمة وهي تصبو إلى اصطناع أساليب العقل والحكمة الثورية في آن معا إزاء عدو قوي شديد البأس. فإما أن ينجح الرجل المثقف في أداء دوره كعامل مع الناس وللناس وإما أن تنزل الهزيمة بفكرة الثقافة ذاتها كسلاح للشعب، يواجه به الأعداء الطامعين في جهله وفي مرضه وضعفه وبالتالي في خنوعه. ولهذا فقد شعر فانون لأول مرة بقضية الإنسان المثقف أمام الجماهير وأحس أن من واجبه أن يضع صيغا جديدة تحكم الأسلوب الوجودي للرجل المثقف بين الجماهير التي لا حظ لها من ثقافة أو من معرفة، وذلك بأن يحقق هذه الصيغة في سلوكه الشخصي. والواقع أن فانون عانى معاناة شديدة من جراء هذا التفكير في وسيلة الرجل المثقف إلى النفاذ والتعمق داخل نفسيات الجماهير العامة وداخل ضمائر المثقفين كرجال مسئولين عن توجيه الشعوب لبلوغ درجة الأهلية للحياة الجادة العميقة. وكان فانون يعتقد بأن المثقفين إذا لم ينجحوا في خدمة القضايا على هذا المستوى الشعبي، يستحقون هذه التسمية

ويصيرون خونة للأمانة العقلية التي حملتها لهم البلاد. فإما أن يبلغ صوت المثقف آذان الجماهير وإما أن يظل دائما في حكم الفاشل الذي لا يحقق رسالة ولا يخدم قضية يفيد إخوته من قريب أو من بعيد.

وصرف فانون ذهنه لقضية ما إذا كان يمكن توصيل الثقافة كأسلوب عمل وحركة إلى الناس .. والناس في وضع يكاد لا يعلو كثيرا على مستوى الأمية. وعلى هذا فإيمان الناس بشيء يجب أن يكون وليد إيمان المثقف نفسه بهذا الشيء. ومن هنا نجح "فانون" لأول مرة في اصطناع أسلوب جديد لكتابات يخدم قضية الاتصال بالجماهير ولا يؤدي حقيقة موقفه كمثقف يحرص على أسلوبه العلمي في التكوين والنشأة. فكتب فانون مقالاته الفرنسية بطريقة جديدة لعل أحدا لم يلتفت إليها حتى الآن عند تفسير "فانون". فالغالبية العظمى من المؤلفين الذين تناولوا "فانون" تكلموا عنه كماركسي مؤمن بالمنهجية الجدلية، ولكن المدقق في عبارات فانون وفي أسلوبه وفي طريقة انتقائه للألفاظ والجمل وفي انتقالاته من عبارة إلى عبارة يحس في التوبأن "فانون" قد تأثر بالمنهجية الفينومولوجية في الأسلوب.

ثانيا : الدلالات العامة للشخصية الجزائرية في كتابات فانون وانعكاساتها في الثورة التحريرية :

لقد حاولنا هنا أن نسقط أضواء على جانب واحد من أوجه الحياة الجزائرية أثناء حرب التحرير من أجل الكشف عن جزء واحد من خبايا النفس الجزائرية وهي تتفاعل فتتغير فتغير البنية الاجتماعية كلها، تحريرا لجنسها من الاغتصاب والعبودية.

تناولنا في هذا المبحث جانبا مما تميزت كتابات فرانز فانون بخصوص دور المرأة في الإعداد النفسي للثورة وبالتحديد عبر كتابه " سوسيولوجية ثورة"، وخصصه بعنوان "الجزائر ترفع نقابها"⁵ ، حيث خصص فانون فصلا كاملا

يعد من أبرز وأعمق ما تم تناوله من تحليل حول جدلية الحجاب، والذي أصبح اليوم أداة للنشاط الثوري في ردود الفعل التي رافقت القوانين الفرنسية الحالية حول منع الحجاب داخل المؤسسات المدرسية ثم الحجاب الشامل في الفضاء العمومي.

يقول فانون " أول ما يلاحظه السائح مباشرة هو الحجاب (الحايك) الذي تلتحفه النساء.. فقد بقي السائح فترة طويلة قبل أن يعرف أن المسلم لا يتناول الخنزير في طعامه أو أنه يمتنع عن العلاقات الجنسية في النهار أثناء شهر رمضان، لكن حجاب المرأة هذا يظهر بإلحاح وثبات يكفيان لجعله طابعا مميزا للمجتمع العربي".⁶

نحن لا نذكر هنا الأوساط الريفية حيث تكون المرأة غالبا متحجبة: وفضلا عن ذلك لم يحسب حساب المرأة القبائلية التي لا تستعمل إطلاقا الحجاب خارج المدن الكبرى. والمرأة العربية هي أولا تلك التي تحمل الحجاب في حضور السائح الذي يندرج وجوده كمغارة بين الجبال. وفي العادة تؤخذ هذه الطبيعة الخاصة بالمرأة القبائلية بوصفها واحدة من موضوعات عديدة أخرى كعنصر من عناصر الدعاية الاستعمارية التي توجه لدعم فكرة التعارض بين العرب والبربر.

سوف نرى أن الحجاب الذي يعد عنصرا من العناصر التقليدية الملبسية الجزائرية سيصبح فرس الحلبة في معركة ضخمة تسخر قوات الاحتلال بمناسبة أكثر مصادر ثروتها قوة وتنوعا وتستخدم فيه كل مخططات هجوماتها وفلسفاتها، حيث صار ينظر للحجاب بمثابة صورة من صور الوجود المحرك للشخصية. وبذلك وسعيا من الإدارة الرئيسية رفع الحجاب عن المرأة، يجري على الأقدام وصف الإمكانيات الضخمة للمرأة "التي حولها الرجل الجزائري لسوء الحظ إلى مادة جامدة فقدت خطوتها وكيانها وحتى

إنسانيتها"⁷ كما تسعى لإلغائه بطريقة علمية نفسية مستخدمة ما لديها من وسائل بقصد إشعار الجزائرية أنها "مستدلة" واصفة الرجل الجزائري -وهي تتجه إلى المرأة- كونه ساديا متوحشا، محاولة بذلك دفع المرأة الجزائرية إلى تحويل عقيدتها وإخضاعها للقيم الأجنبية وانتزاعها من كيائها. كما تقوم بمهارة بالغة في عتاب نموذجي ضد الرجل مكثرة من النكات والنوادر والأمثلة لوضعه في قفص الاتهام.

يقول فانون " يعاتب الرجال الجزائريون جهارا على كونهم يجدون من انتشار العادات الغربية المألوفة وعلى أنهم لا يلعبون دورهم كنواة فعالة لقلب عادات المجتمع وعلى أنهم لا يتمتعون زوجاتهم بمزايا أكرم وأعمق"⁸. والواقع أن فرنسا لم تكن تجهل أن المرأة الجزائرية هي عماد الثورة والثقافة في آن معا، وأن فقد شخصيتها وخضوعها للتصرفات الأجنبية وتبديل عقليتها من شأنه أن يقلل من الحماس الثوري وأن يحطم الحضارة الجزائرية الأصيلة بل ويؤدي إلى الاستسلام للعدو الباغي.

فقد قوت فرنسا إيمانها في المرأة الجزائرية بوصفها عنصرا من عناصر التأييد لنفاذ الحضارة الغربية إلى المجتمع الأصلي وللقضاء بالتالي على كل بوادر الشخصية الجزائرية، وكان الأمل ينبعث إليهما مع كل امرأة جزائرية جديدة تتخلص من الحايك. فكأنما كان كل جسد يتحرر من الحايك التقليدي يعبر على أن الجزائر تبدأ في فقد شخصيتها " المتعصبة" وتقبل اغتصاب الاحتلال لها.

وفي هذا المجال يقول فانون في الفصل الثاني من كتاب سوسيولوجية ثورة (الجزائر ترفع نقابها) "....تحدد الإدارة الاستعمارية مذهبها سياسيا دقيقا على نحو: إذا أردنا أن نضرب المجتمع الجزائري في سياقه المتلاحم

وفي قدرته على المقاومة والصمود، فينبغي أولاً أن نستولي على المرأة من وراء حجابها حيث تختفي، وفي المنازل حيث يخفيها الرجل"⁹.

بهذا الحايك الذي يتكلم عنه فانون طويلاً حيث جعله فرس الحلبة في معركة التحرير والمحدد للمجتمع الجزائري الخاضع للاستعمار، بين ما كان يسعى إليه مسئولو الإدارة الفرنسية بالجزائر من مساع لتعطيم أصالة الشعب والقضاء على كل ما من شأنه أن يذكر عن قريب أو بعيد بالواقع القومي.

ويعيد فانون إلى الأذهان تاريخ الغزو الفرنسي في الجزائر المتعلق بالحملات المفاجئة للقوات في القرى ومصادر الثروات والممتلكات واغتصاب النساء ونهب البلاد ليعين لنا نفسية رجل الاستعمار المملوءة بالسلوك الإجرامي العنيف الذي طالما تذهب ضحيته نساء جزائريات يتعرضن لعمليات فض البكارة الشيء الذي يؤثر في أنفسهن أقصى تأثير. وهذه القسوة وذلك التمسك والاعتصاب العنيف يوضحه لنا فانون لنستنتج الوضع المتخوف لدى المرأة الجزائرية إزاء رجل الاستعمار وقلقها الدائم كلما تم لقاء لها مع أوروبي.

يقول فرانز فانون: " في الحلم تصرخ المرأة كضحية وتدافع عن نفسها كأنثى الإبل لكونها، بلا إخطار وبلا وعي تتعرض للهزيمة من طرف الأوروبي وتغلب على أمرها وقد تمزقت تمزيقا."¹⁰

ويسجل فانون هذه التيارات المنبعثة في نفسية المواطن الخاضع للاستعمار وردود أفعاله إزاء ذلك العنف فيؤكد ... أن المواطن المستغل يقوم برد فعل على نحو عنيف جداً أمام الإلحاح المستمر من قبل المستعمر الأجنبي على هذا القطاع أو ذاك من قطاعات التقاليد ...، ومثال لرد الفعل

المعاكس هذا يعطيه فانون بكيفية جلية حينما يتكلم عن خاصية الحايك عند المرأة الجزائرية.

هذا إذن طابع نفساني يندرج ضمن السلوك العام للجزائري برز خلال حرب التحرير، وهو طابع لاقى صعوبات كثيرة إذ كان المجتمع الجزائري يميل طيلة فترة الاحتلال إلى تحاشي رجل الاستعمار.... ذلك أن عناد هذا الأخير وإصراره عن مشروعه بشأن القضاء على مختلف هذه الانعكاسات الثورية والسلوك التقليدي وتحويلها إلى عامل فعال في مجال الهدم الحضاري، أدت إلى تقوية أنواع هذا السلوك التقليدي التي وإن كانت تميزها بعض السلبيات إلا أنها كانت تعتبر إيجابيات في إستراتيجية المقاومة ضد المستعمر الغازي.

وظاهرة ردود الأفعال هذه عند الجزائري يتطرق إليها الكاتب محمد الميلي حينما يتكلم عن مقاومة الشعب الجزائري لمحاولات طمس شخصيته من طرف الاستعمار فيكتب: " يؤدي هذا الهجوم المطلق الذي شنّه الاستعمار على الإسلام في الجزائر إلى رد فعل معاكس تماما: تمسك الشعب بالإسلام والعربية واللجوء إلى أسلوب القنفذ في الدفاع، أي الانغلاق والتفوق حتى لا يجد الاستعمار منفذا للنيل من الشخصية الوطنية".¹¹

ولعل تسجيل هذه الظاهرة في كتابه "سوسيولوجية ثورة" قد مكنت "فانون" من اكتشاف الملامح والتضاريس لهذه المقومات بعين المثقف الاجتماعي والطبيب النفسي وبعين المتعاطف مع الشعب الجزائري ومع ثورته لأن دور المرأة في الحفاظ على الشخصية ودور الثقافة الوطنية لم يكونا واضحين قبل اندلاع الثورة.

ذلك أن المظاهر التي تبنتها المقاومة الثقافية للشعب الجزائري كانت قبل اندلاع الثورة مظاهر محافظة لم تحظ بالعناية ولا بالتأييد من طرف

المثقفين الجزائريين، لأن التمسك بالتقاليد في نظر الكثيرين مظهر من مظاهر الجمود والانحطاط.

ونلاحظ هنا في السياق نفسه أنواع السلوك الاستثنائي وملامح الشخصية الجزائرية التي ظهرت بصفات جديدة خلال فترة الصراع والكفاح المسلح عند الرجل الجزائري الذي يقبل بهذا الوضع الجديد وهذا التصرف المستحدث ذلك أن الرجل الجزائري التقليدي الذي تميز بالغيرة وبالتمسك "الأسري" قد فقد كل هذا عند احتكاكه بالثورة.

وعند التزام الزوج أو الأب بالنضال يكتشف كل منهما أبعاد جديدة حول العلاقات بين الجنسين، وهذا موقف مخالف تمام المخالفة مع الموقف السابق، لكنه لا جدال في أنه يعد سلوكا كامنا إلى الأبد في ملامح الشخصية الجزائرية وانعكاساتها الحركية في الثورة الجزائرية.

ومن قدرات الشخصية الجزائرية وتلاؤمها مع المواقف المستحدثة أن كان على بعض النساء الجزائريات - بحكم ظروف استثنائية قاهرة - أن تحولن تحولا جذريا إلى نساء أوروبيات مليئات بالانطلاق والتحرر فتشعر هؤلاء النساء من غير المحجبات بإحساس مخيف، إحساس بالقصور والنقص لأنهن لسن في زيهن العادي أو أنهن صرن "عاريات". آنذاك تتفجر طاقات شخصيتهن ليصبحن متخذات لسلوك استثنائي يتحاشين به كل ما من شأنه جذب الانتباه حتى يقمن بمهمتهن الثورية حسب ما تقتضيه الظروف.

هكذا تتجلى الشخصية الجزائرية في أوضح صورة من حيث استخدام أساليب جديدة مبتكرة لمواجهة كل موقف واستخراج حيل استثنائية للتعبير عن طاقاتها في مواجهة الأخطار بأساليب ذكية مبتكرة، فيها الحيلة والدهاء، ولكن فيها أيضا احتمال الألم والعناء من أجل إخفاء الحركات السرية اللازمة لسير حرب التحرير في طرقها الجديدة. وإذا اعتبرنا الذكاء هو المرونة

والحركية للتكيف مع الأوضاع، فمعنى هذا ان الشخصية الجزائرية كانت تتمتع بصفات خاصة مثل الصبر والكتمان والعناء واحتمال الألم، ولكنها تتميز أيضا وعلى الخصوص بقدر من الذكاء لمواجهة الموقف والتكيف معه بسلوك ذكي.

تصرفات غريزية لمواجهة الأخطار الخارجية بعيدة عن أي تأثير أجنبي حاول فانون التعبير عنها عندما يقول في كتابه "سوسيولوجية ثورة": "...يجب دوما أن نستحضر في أذهاننا هذه الحقيقة، وهي أن المرأة الجزائرية التي شاركت في الثورة والتزمت بها، قد تعلمت بالغريزة دورها كامرأة وحيدة في الطريق وفي رسالتها الثورية، فالمرأة الجزائرية ليست بالشرطي السري وإنما اعتادت أن تخرج إلى الطريق العام بدون تعلم وهي تحمل في حقيبة يدها ثلاث قنابل أو تقرير عن النشاط محفوظا بمكان خاص بين طيات ثديها - ولم تكن تعرف ذلك الإحساس بأنها تلعب دورا مقروءا في مئات الروايات، أو مشاهدا في السينما، ولم يكن لديها ذلك الشعور بتقليد الغير الذي نشعر به عند المرأة الغربية..."¹².

ويتبدى لنا هنا أن الدور الذي قام به الجزائري لا يتمثل في إبراز شخصية معروفة ومؤلفة ألف مرة في الخيال أو في القصص بل ذلك نوع من الميلاد الحقيقي النقي بلا إعداد ولا تمهيد.

ولئن كانت هذه السلوكات التقليدية مثابة مقاومة ساكنة بلا سلاح الا أن تصاعد صور الكفاح استدعى حلولا مبتكرة بدخول المرأة في مصاف الثورة وتعلمها بالغريزة دورا جديدا واعتمادها تصرفا استثنائيا ما كانت تعرفه من قبل.

وإذا كانت توجد في كتابات كثير من ذوي النفوذ الفرنسي أمام فشل المستعمر في قلب عادات المجتمع الأصلي ما مفاده: "إننا نبذل جهودا لا

طائل من ورائها ... و... إن الإسلام متمسك بتلابيب فريسته ...¹³، إلا أن الأمل كان ينبعث لدى المحتل مع كل امرأة جزائرية جديدة تتخلّى عن الحجاب في مجتمع جزائري تحكمه أنساق دفاعية في طريقها إلى التحلل والتكشف والتراجع. وكأن كل حجاب يسقط وكل جسد يتحرر من قيد الحجاب الحايك التقليدي وكل وجه يستسلم للنظرات الحادة الطامعة لدى رجل الاستعمار، يعبر عن أن الجزائر تبدأ في الخضوع والاستسلام.

3- النتائج :

نستخلص في دراستنا هذه أن تناول قانون للشخصية الجزائرية بأبعادها ومحدداتها الثقافية والاجتماعية وبوصفها عاملا من العوامل الأساسية في ترسيخ أواصر الجماعات وتوطيد تماسكها وتوحيد أفكارها هو اكتشاف عميق ومساهمة بالغة القيمة تعد بمثابة وثيقة تاريخية من أعظم الوثائق السياسية، كما تشكل في تقديرنا مدخلا أساسيا لدراسة موضوع الهوية الجزائرية.

وما يجعل هذه الدراسة مثابة الوثيقة التاريخية في رأينا أن كتابات قانون قد صدرت ونيران الثورة المسلحة مشتعلة، جعلت قانون يكتشف خفايا المشاكل التي تعاني منها الجزائر والعالم الثالث بصفة عامة، حيث كان لتجربة كفاح الشعب الجزائري أبعد الأثر على مؤلفاته.

ومما لا شك فيه أن التحليل القانوني لميكانيزمات الاستعمار وقراءته لمبدأ دور الثقافة الوطنية في حماية المجتمع وفي حصنه من التفتت والذوبان طرح اشكالات عديدة تتعلق بمفهوم الثورة ومرجعيتها وإيديولوجيتها وطبيعة الفاعلين التاريخيين فيها.

وقد رأينا انه، وإن كان فانون في البداية يدعو الشعوب المستعمرة إلى التخلي عن ثقافتها وقيمها والاندماج في ثقافة أوروبا، إلا انه بعد وصفه للثقافة الوطنية بات يؤمن أن هذه الثقافة الوطنية أصبحت عنصراً في تحريك الكفاح المسلح، فكان تحليله لميكانيزم الاستعمار الساعي إلى تفتيت الشخصية الوطنية والقضاء عليها من الداخل بواسطة المرأة التي حلل دورها كما رأيناه سابقاً، مثابة اكتشاف فذٍ اكتشفه فانون لدقة ملاحظته وعمق تحليله في ظل ظروف المخاض الثوري الذي عاشه في الجزائر.

5- مناقشة النتائج:

تحليل فانون السوسيولوجي لمظاهر التغيرات التي أدخلتها الثورة الجزائرية على المجتمع، جعلتنا نميز بين مساره اليساري الفرنسي ومساره الراديكالي الجديد بعد انضمامه في الثورة.

إنه تحول هام نستنتجه من فكر فانون استجلينا بعد مظاهر تأثير الثورة الجزائرية على فكره وتفاعل فكره الجديد على هذه الثورة وعلى ملابساتها، وهو ما يمكن أن نلخصه بتأثير دياكتيكي.

كما أننا استنبطنا مفهوم العنف عند فانون في كتاباته وبخاصة منها "معذبو الأرض" لنكتشف تأثيره بالتحليل الوجودي لـ "سارتر" ودعوته لممارسة العنف من أجل التحرير، حتى وإن كان ما عبر عنه "ايميل سيزار" أقرب إلى الحقيقة حين وصفه قائلاً: "إن عنف فانون بدون مبالغة هو عنف رجل غير عنيف، وأقصد بذلك أنه عنف العدالة وتطهير النفس"¹⁴

نرى من جهة ثانية، أن الشخصية الجزائرية كما تجلت في أعمال فانون ليست شخصية عادية محكومة بالأوضاع الطبيعية لحياة الكائن البشري، وبالتالي لا يمكن أن يكون السلوك الذي تؤديه هذه الشخصية مرتبطاً

ارتباطا عضويا بحقيقة الشخصية التي تؤذي ذلك السلوك، لأنها قد تقبل أداء سلوك استثنائي بقصد تحقيق الهدف العام كما نرى من خلال ما تعرض له قانون، ان الشخصية الجزائرية في تكوينها وبنيتها وديناميكياتها التنظيمية تستند بلا ريب إلى واقع اجتماعي وثقافي خاص، وبالتالي فهي لا تكشف عن نفسها إلا من خلال نتاجات نفسية وسيكوباتولوجية . هذه الملاحظات خلصت إليها مجموعة من الدراسات السابقة التي حللت كLINICKIA أو سوسيولوجيا "نموذجا انتروبولوجيا " يتناغم مع واقع الشخص الجزائري ومعاناته ومشاكله.

خاتمة:

إن كل من يتعرض لدراسة الشخصية الجزائرية قبيل 54 وبعدها يمكنه التعرف عليها في صفحات قانون. وبعبارة أخرى إذا كان قانون هنا يقول كلاما عاما فلا شك أن ذلك يصلح لكل بلد من المستعمرات. انه استقى ذلك من أزمة عاشها ثم صاغها في قالب أفكار عامة استخلصها من التربة الجزائرية. ان الوصف الذي قدمه قانون دقيق وصادق يصور تصويرا دقيقا لوقائع تاريخي معروفة بالجزائر وللاستعمار الحديث ولألوان الميكانيزم التي يحركها. إن قانون قد حقق فيما بين 1954 و1961 سنة وفاته تطورا فكريا جسيما فقفز من التمرد على الزوجية بكتابه "بشرة سوداء اقنعة بيضاء" الى الثورة التحريرية في كتابه "سوسيولوجية ثورة" الى الأممية في كتابه "معذبو الأرض" حيث أمدته الجزائر بتجربة واسعة في هذا المضمار. لقد أتيح لقانون سواء أثناء مساهمته في التحرير بمجلة المجاهد أو خلال قيامه بالمهام السياسية والدبلوماسية أن يلمس عن كتب تلك الخطوط

الفاعلة التي جعلت الثورة الجزائرية ترتفع الى مستوى التجربة الأصلية التي يتجاوز اشعاعها المحيط المحلي.

رأينا في دراستنا هذه أن تناول فانون للشخصية الجزائرية بأبعادها ومحدداتها الثقافية والاجتماعية بوصفها عاملا من العوامل الأساسية في ترسيخ أوامر الجماعات وتوطيد تماسكها وتوحيد أفكارها هو اكتشاف عميق ومساهمته بالغة القيمة تعد بمثابة وثيقة تاريخية من أعظم الوثائق السياسية، كما تشكل في تقديرنا مدخلا أساسيا لدراسة موضوع الهوية الجزائرية.

لعل ما يزيد هذه الدراسة أهمية وتجعلها بمثابة الوثيقة التاريخية التي تسجل الاختيارات الفكرية التي كانت تدور ونيران الثورة المسلحة، أن فانون قد شارك في الثورة الجزائرية، وهذه المشاركة هي التي جعلته يكتشف خفايا المشاكل التي تعاني منها الجزائر والعالم الثالث بصفة عامة وكان لتجربة كفاح الشعب الجزائري أبعد الأثر على مؤلفات فانون الذي تطعم بأفكارها واستمات من أجلها وباتت مؤلفاته تعتبر مساهمة جادة بجوانب من أفكاره كانت مجهولة حتى الآن.

ومما لا شك فيه ان التحليل الفانوني لميكانيزمات الاستعمار وقراءته لمبدأ دور الثقافة الوطنية في حماية المجتمع وفي حصنه من التفتت والدّوبان يطرح إشكالات عديدة تتعلق بمفهوم الثورة ومرجعيتها وايدولوجيتها وطبيعة الفاعلين التاريخيين فيها.

لقد خلص فانون في كتاباته الى أن الثقافة الوطنية اكتشفت نفسها كعنصر في تحريك الكفاح المسلح حيث كانت المخرج الوحيد الذي يملكه الجزائريون لوضع حد لاستعمارهم واستغلالهم، وهو الذي كان قبل سنوات فقط يدعو الشعوب المستعمرة الى التخلي نهائيا عن ثقافتها وقيمها

والاندماج كليا في ثقافة أوروبا ان أرادت التخلص من عقدها بدل اللجوء الى تاريخها وماضيها وثقافتها وأساطيرها لإثبات قوتها وعظمتها تجاه المستعمر

لقد أثرنا أن نتناول ما أبرزه فانون في كتابه من ملامح للشخصية الجزائرية ومحدداتها الثقافية والاجتماعية ونتائجها النفسية وقمنا بالتذكير بأهم التوجهات النظرية التي أسهمت في سير اغوار الشخصية والكشف عن مكوناتها وخبائها الجوهرية عند فانون، نتيجة حرصنا نحو استجلاء جانب من الحقيقة المتصلة بفرضيتنا الأولى وهي تأثير الثورة الجزائرية في فانون حيث خلصته من عقده تجاه الأبيض الأوروبي فكان تحليله لميكانيزم الاستعمار الساعي الى تفتيت الشخصية الوطنية والقضاء عليها من الداخل بواسطة المرأة التي حلل دورها في الفصل الأول من كتابه سوسيولوجية ثورة (وهو ما قمنا بترجمته ترجمة كاملة) فبدا هذا التحليل اكتشافا فذا اكتشفه فانون لدقة ملاحظته وعمق تحليله في ظل ظروف المخاض الثوري الذي عاشه في الجزائر. وكانت مساهمته أن تمثلت في ابراز تكييف شخصيتها مع ما تفرضه ضرورات القتال وما أوجدته من مواقف وتوجهات جديدة اختفت فيها تلك الميزة المحرمة التي يتخذها النقاب اختفاء شبه كلي في سياق النضال التحرري هذا، الى جانب تحليله للإعلام الجزائري ومظاهر التغيرات السوسيولوجية التي أدخلتها الثورة على المجتمع.

كما وجدنا أنفسنا منساقين نحو التعرف عن أسباب توجه كتاباته وجهة جديدة لنكتشف بعد انضمامه الكلي للثورة الجزائرية ازدراءه من نظريات اليسار "الجوفاء" ليندمج ضمن الراديكالية الثورية ويستنكر صراحة ما كان يعتنقه من مبادئ فارغة كان قد تميز بها مساره اليساري الفرنسي، المتنصل من دوره الفعلي تجاه الجزائر.

إنه تحول هام في فكر فانون استجلينا بعض مظاهر تأثير الثورة الجزائرية في هذا التحول في نفس الوقت الذي يؤثر فيه تفاعل فكره الجديد على هذه الثورة وعلى ملابساتها، وهو ما أكد فرضيتنا المعروضة سابقاً

أما الذي يمكننا أن نختم به دراستنا وهو أن فانون الذي يوصف بأنه يمثل الشخصية المحورية لدراسات ما بعد الاستعمار يحاول أن يشرح بمبضع (سكين الجراح) نفس لحظة الاستعمار وأساليب التحرر منه متعرضاً فيه للثقافة الوطنية وللسلطة وللعنف. والسؤال المطروح هو: إلى أي مدى يمكن توظيف كتابات فانون لعلاج التغيرات التي تعصف بالجزائر اليوم؟

وعلى حد وصف فانون لها: "فهي عاجزة عن طرح أفكار كبرى وعن القيام بأعمال يتجلى فيها ربح الابتكار - بل لم تنجح حتى في مجرد الحصول على بعض التنازلات من الغرب مثل الاستثمارات التي كانت ستصبح ذات قيمة للاقتصاد الوطني"¹⁵.

تلك تكهنات لفانون لم تكن نتيجة تحليل مخبري، لكنها كانت خلاصة دراسة ميدانية وملاحظات دقيقة حللها بعين المفكر وخبرة المحلل تسد فراغاً وترد على تساؤلات لا تزال موضوع جدل بين مثقفي العالم الثالث أجمع.

الهوامش :

- *قال عنه الرئيس الجزائري الاول "أحمد بن بلة"، في ذكرى لحياته مترحما عنه: "لم يكن "فانون" رفيق السلاح فحسب بل كان المرشد والموجه".
- 1 - Frantz Fanon « Peau noire, masques blancs » - Ed. Seuil – Paris - 1952.
- 2- أنظر: فرانز، فانون، سوسيولوجية ثورة، ترجمة: عبد الحميد حيفري، " المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغبة، الجزائر، 1985.
- 3 - Frantz Fanon : « Les damnés de la terre » Edition Maspéro , Paris 1961.
- 4- - لوکا : سوسيولوجية فرانز فانون – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1971 ، ص 17.
- 5- سوسيولوجية ثورة ، م.س، ص:87.
- 6- المصدر نفسه، ص: 45.
- 7- المصدر نفسه، ص: 67.
- 8- المصدر نفسه، ص: 90.
- 9- المصدر نفسه، ص: 95.
- 10- المصدر نفسه، ص: 77.
- 11- المصدر نفسه، ص: 45.
- 12- محمد الميلي : فرانز فانون والثورة الجزائرية – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1973 ، ص 57.
- 13- FANON Frantz : L'an cinq de la révolution algérienne - Ed. Maspero - Paris – 1959 – P :61.
- 14- فرانز فانون – العام الخامس من الثورة الجزائرية – م.س – ص 71.
- 15 - David Macy : F.Fanon – Une vie – Ed. Chihan – Alger – 2012 – P. 146.

قائمة المراجع :

1. محمد الميلي : فرانز فانون والثورة الجزائرية - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1973
2. لوکا:سوسيولوجية فرانز فانون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر - 1971
3. كوٹ دافيد : ((فانون)) نشر سيغير ، باريس ، 1970
4. سيمون دي بوفوار: ((قوة الأشياء)) ، قاييمار ، باريس ، 1983
5. حمداني حسن : الفكر السوسيولوجي عند فرانز فانون مجلة الثورة الافريقية رقم 72-71 ، الجزائر ، 1964
6. سليمان عشريني : الشخصية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2007
7. Irène Gendzier. Traduit par Edouard Deliman « F.Fanon » . Ed. Seuil -Paris - 1973
- 8-Philippe Lucas ; Sociologie de « F.Fanon » ; SNED - Alger - 1971
- 9-FANON Frantz : « Peau noire , masques blancs » . Ed. Seuil . Paris 1952
- 10- David Macy : F.Fanon une vie - Ed. Chihan - Alger - 2012
- 11 -Albert Memmi : Portrait du colonisé - Ed . Gaillimard - Paris - 1985
- 12-Benarab Abdelkader : F.Fanon - L’homme de rupture - Alfabarre , Paris , 2010
- 13-CHERKI Alice : F. Fanon - Portrait - Ed. Seuil - Paris -2011
- 14-FANON Frantz : Sociologie d’une révolution - Ed. Maspero - Paris - 1959
- 15 -READ Alan : The Fact of Blackness : Frantz Fanon and Visual Reprerentation - Seattle : Bay Press - 1966 .
- 16-FANON Frantz : « Les damnés de la terre » - Ed. La Découverte - Paris - 2002 (1961)